سلسلة كتب الانصاري

عبدالقدوس القاسم الانصاري

منذ البداية، سطعت ريادة عبد القدوس الأنصاري في كتبه المتنوعة التي شملت مجالات الأدب والعلوم والآثار والإصلاح الاجتماعي الشامل. وقد تجسدت شخصيته التنويرية وحضوره الواضح في حلقات الثقافة السعودية منذ بداية تشكيلها.

عندما نتجول بين سلسلة كتبه المتنوعة في التراث واللغة والشعر واهتمامه بالآثار، نجد رابطاً واحداً يجمع بينها: عمق الفكر، وقوة الطرح، والثبات على الرأي.

إنَّ رغبة الأنصاري الجارفة في إضاءة شمعة التنوير، وبخاصة في منطقة الحجاز العربية الأصيلة والمملكة

العربية السعودية عموماً، كانت العنوان الرئيسي الذي ميَّز حضوره وتفرده بين الرعيل الأول الذي كان فيه الأنصاري في طليعة القادة الفكريين.

حصاد العيد

اربعة ايام مع شاعر العرب
عَبْد المُحسِن الكاظِمي

تأليف

عبد القدّوس الأنصاري

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

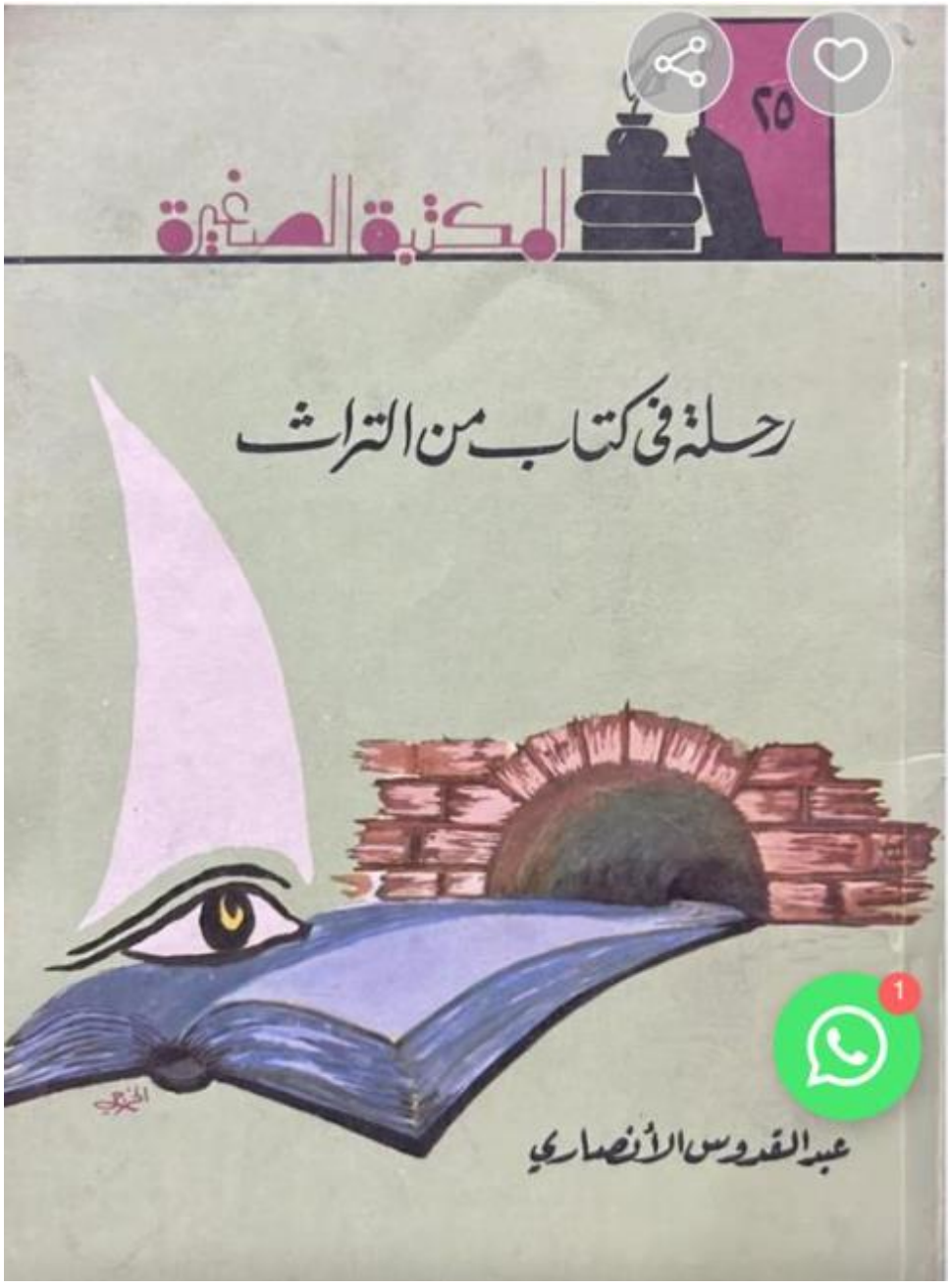

٢٥
المكتبة الصغيرة
رحلة في كتاب من التراث
عبد القدوس الأنصاري

كتاب من نوعه صدر في الحجاز :—

ar Madinah al-Munawwarah

آثار المدينة المنورة

بقلم

عبد القدوس الأنصاري

الموظف بديوان أمارة المدينة المنورة

واستاذ الأدب العربي بمدرسة العلوم الشرعية

طبعت على نفقة

المكتبة العلمية

بالمدينة المنورة

لصاحبها

السيد احمد الفيض آبادي وسامي حفظي

حقوق الطبع محفوظة

١٣٥٣ هـ — مطبعة الترقي بدمشق — ١٩٣٥ م

التاريخ المفصل

للكعبة المشرفة قبل الإسلام

بقلم

عبد القدوس الأنصاري

الناشر: نادي مكة الثقافي الأدبي ١٤٠٣هـ

الأنصاريات

شعر

عبدالقدوس الانصاري

الملك عبد العزيز

في

مرآة الشعر

بقلم

عبد القدوس الانصاري

أعد هذا البحث للمؤتمر الأول للأدباء السعوديين
وألقي فيه في مساء يوم ٤-٣-١٣٩٤هـ الموافق ٢٧ مارس ١٩٧٤ م

مؤسسة مكة للطباعة والاعلام

« وجعلنا من الماء كل شيء حي »

(القرآن الكريم)

تاريخ العين العزيزية بجدة

ولمحات

عن مصادر المياه في المملكة العربية السعودية

تأليف

عبد القدوس الأنصاري

طبع على نفقة إدارة العين العزيزية بجدة

(المملكة العربية السعودية)

الصِّيَام ... وتفاسِيرُ الأحكام

بقلم

عَبْد القُدُّوس الأنصَاري

القسْم الأوَّل

الصَّيَام

حقوق الطبع محفوظة

مع ابن جبير في رحلته

تأليف

عبد القدوس الأنصاري

الطبعة الأولى

١٣٩٦هـ - ١٩٧٧م

أول رواية صدرت بالحجاز :

التوأمان

رواية ادبية علمية اجتماعية

بقلم

عبد القدوس الانصاري

الموظف بديوان امارة المدينة المنورة

« ملحوظة هامة :

« قد فسرنا بعض الالفاظ اللغوية المغلقة »
« وحللنا بعض التراكيب المجازية باسفل »
« صفحات الرواية: ايضاحاً وتنويراً لافكار »
« الناشئين والمبتدئين من القراء الكرام »

« المؤلف »

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٤٩ هـ مطبعة الترقي بالقيمرية في دمشق ١٩٣٠ م

موسوعة
تاريخ مدينة جدة
تأليف
عبد القدوس الأنصاري
مؤسسة الكتب الثقافية

عبد القدوس الأنصاري
١٣٢٤هـ - ١٤٠٣هـ

من مؤلفاته:

- آثار المدينة المنورة.
- بين التاريخ والآثار.
- بنو سليم.
- موسوعة تاريخ مدينة جُدة.
- التاريخ المفصل للكعبة المشرفة قبل الإسلام.
- طريق الهجرة النبوية.
- إصلاحات في لغة الكتابة والأدب.
- بناة العلم في الحجاز الحديث.
- تاريخ العين العزيزية.
- مع كتاب الواضح لأبي بكر الأشبيلي النحوي.
- الملك عبد العزيز في مرآة الشعر.
- الصيام وتفاسير الأحكام.
- التوأمان.. أول رواية سعودية.
- الأنصاريات (ديوان شعر).
- رحلتنا الثانية إلى منطقة الباحة.
- أربعة أيام مع شاعر العرب (عبد المحسن الكاظمي).
- رحلة في كتاب من التراث.
- التحقيقات المعدة في ضم جيم جُدة.
- مع ابن جبير في رحلته.

ISBN 978-603-8026-46-5
9 786038 026465

دار المنهل

Dar-Aljameah Bookshop
SR 161.00
112444

التقارير

تقرير عن كتاب « تاريخ مدينة جُدة » لفضيلة الشيخ محمد بن حسين نصيف رحمه الله .

■ أول كتـــاب من نوعـــه ■

■ صدر في تاريخ مدينة جُدة ■

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد طالعت هذا الكتاب الذى الفه الاستاذ عبد القدوس الانصارى : (تاريخ مدينة جدة)
فوجدته حافلاً مستقصياً لأشتات تاريخ هذا البلد من قديم ومن حديث مع حسن ترتيـــب
واستنباط واستقراء وبما يمكن من التقصي والتحري .. وأعتقد أنه اول كتاب من نوعه صدر فـــى
تاريخ مدينة جدة بهذا الشكل الضخم الجامع الشامل . وفق الله العاملين لما فيه خير الوطن
وجزاهم افضل جـــــزاء . ...

محمد نصيف

٢٢/٦/١٣٨٢ هـ

—(((((O)))))—

الكتاب تحفة التاريخ ..

• شعر الشاعر المفلق : السيد محمد بن علي السنوسي

مهداة للأستاذ الكبير عبد القدوس الأنصاري
تحية لكتابه (تاريخ مدينة جدة) :

أضاف الى سِنِي التاريخ جِدَّه
كتاب صيغ في « تاريخ جُدَّه »

جلا الماضي السحيق وَجَدَّ حتى
تكامل نُوره في كل مُدَّه

ونقّب عن عصورٍ مظلمات
تفوت العصر إحصاء وعِدَّه

وأبرز من غياهبها عهوداً
وجاء بها حقوقاً مُستَرَدَّه

وصاغ معالم الأحداث فيها
وحلّل كل معضلة وعُقدَه

وناقشها نقاشاً مُستَمَدّاً
من الإنصاف منطقه ورُشدَه

★ ★ ★

أخا الأدب الرصين ـ ولا أغالي
لأن الحق فوق هوى المَوَدَّه

أأغمط للصداقة وَمْيَ عِقْدٍ
يطوقني ، جُهُودُكَ وهي فرده

وأسمع للمظنة في ثنائي
عليك فلا أرى في الروض وَرْدَه ؟

معاذ الله والحقّ المفدّى
بكل علاقة كرمت وعهده

★ ★ ★

كتابُكَ تحفة التاريخ فنّاً
وأسلوباً وتحقيقاً وجَوْدَه

زففتَ به إلى الدنيا عروساً
لأعتاب (مقدسةٍ) وسُدَّه

تألّقَ حسنها وأضاء حتى
أعاد شبابها للبحر مَدَّه

ففاض على جوانبها غزيرا
ومدّ ذراعه (خيراً) وزَنْدَه

وصفق قلبه الجياش شوقاً
الى (ثغر الحجاز) وهزّ قَدَّه

وغازل في شواطئها الأماني
ترفُّ نضارة وتموجُ رغده

وغَـــرَّدَ لِلْجَمَـــالِ وقـــد تجـــلى

يضـــم الـــروض سَـــوسَنَهُ ورَنْدَهُ

بَلَغتَ (أبا نبيـــــه) ذرى المعـــالي

بنفـــس للمعـــــــــالي مُستَعِدَّه

★★★

ومـــن حمـــل الـــيراع وكان جَـــلْداً

عـــلى تَبِعَـــاتِهِ أعطـــاه مَجْدَه

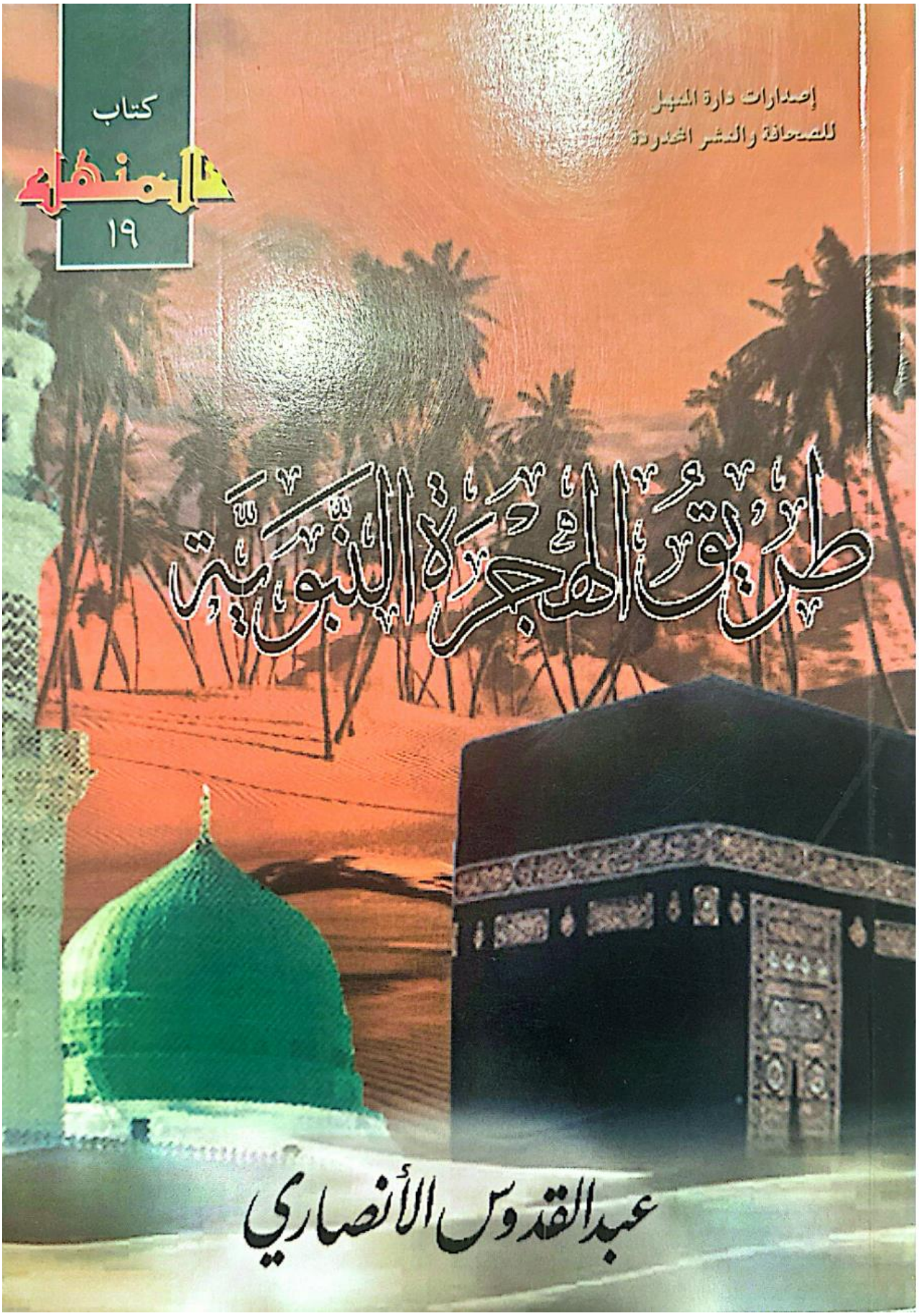

كتاب
المنهل
١٩
إصدارات دارة المنهل
للصحافة والنشر المحدودة
طريق الهجرة النبوية
عبد القدوس الأنصاري

هذا الكتاب

كتب المؤلف هذا الكتاب: «طريق الهجرة النبوية» بروح إسلامية صافية، في دراسة هادفة متأنية، رجاء أن يخرج الكتاب إلى حيز النشر سوياً، على مستوى الموضوع العظيم الذي طرقه.. ربما لأول مرة في التاريخ في كتاب منفرد مطبوع مستقل بشخصيته وذاتيته.

وقد عني المؤلف بإبراز الكتاب في حلة قشيبة من الانتاج والإخراج لكي يجمع بين فضيلتي التحقيق التاريخي المنشود، والجمال البياني الجذاب الشقيف والأسلوب الواضح الشفيف عن المفاهيم المطلوبة ومعناه الكلام السهل الممتنع.. ومن دأب ذلك الأسلوب أن تجتذب أضواؤه انظار القراء وأذهانهم فيتابعوا مطالعته.. كما يجتذب المغناطيس الحديد، أو كما يجتذب الروض الأنيق ذو الجو الساحر الجميل رغبات الوافدين والمتنزهين والمرهقين.

وعناية الكتاب الاسلاميين بتسجيل أحداث الهجرة خطوة خطوة، نابعة من حرصهم على متابعة استقصاء المنابع الأولى التى تفجر منها هذا النور المتوهج على العالم عبر الزمان والأجيال.

وقل مثل ذلك في العناية بدراسة طريق الهجرة.. فطريق الهجرة النبوية جزء أساسى لا يتجزأ من الهجرة.. انه مكانها وميدانها وسبيل حدوثها.

وقد عني كتابنا بدراسة مزدوجة لكل من طريق الهجرة والهجرة نفسها.. فنأمل من الله العلي القدير أن يجعله رصيد توفيق وقبول، وأن ينفع به قراءه. انه سميع مجيب.

شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر / جدة
طريق المدينة - شرق الكوبري المربع
تليفون: ٦٣٩٦٠٦٠ فاكس: ٦٣٩١٠٠٣

رقم الإيداع: ١٥١ / ١٤٢٨
ردمك: X-٧٩-٦١٨-٩٩٦٠

بين التاريخ والآثار

بقلم
عبد القدوس الأنصاري

حصن كعب بن الأشرف النبهاني.

وصفه:

يقوم على هضبة من الحرة الجنوبية الشرقية للمدينة، وطوله ٣٣ متراً في عرض ٣ وارتفاع ما بقي من جدرانه ٤ أمتار وسمكها متر، وله باب واحد في الجهة الغربية وثمانية أبراج ضخمة، وبناؤها من حجارة ضخمة ملتصق بعضها ببعض مباشرة وطول بعضها ١٤٠ سنتيمترا وعرضها ٨٠ سنتيمتراً وسمكها ٤٠ سنتيمتراً.

ولا أثر فيه للنقوش ولا للزخرفة، بناء حربي محض، وبوسطه رحبه واسعة مربعة تبلغ مساحتها ألف متر مربع، وهي غير مرصوفة ولا مبلطة فالصخور الحرية ناتئة فيها، وبينها انخفاضات وارتفاعات.

وبجوار الحصن من الداخل ١٠ غرف مختلفة المقاسات، وأعاليه

مقدمة.

ولما جاء في كتب التفسير والحديث والسيرة من كون بني النضير لما

غلبوا في محاصرة الرسول لي الله عليه وسلم لهم، واستسلموا عام ٣ هـ أو ٤ هـ، وحصل الاتفاق على جلائهم من المدينة، مع حمل ما يستطيعون حمله من أمتعتهم، غير السلاح، ومن ذلك أخشاب سقوف حصونهم ونجف أبوابها

الجميلة المزخرفة - نقول نظراً لما ذكر نرى أن سقوف هذا الحصن وعقوده أخرجت منه في ذلك العهد، ونقلت أخشابها

فيما نقل يومئذ.

وإن هذا الحصن الهائل، ذا الحجارة الضخمة السود، والأبراج العظيمة ليعطينا صورة ناطقة عن كيفية بناء الحصون، هنا، قبيل الإسلام

تحقيق عنه:

بقي علينا: هل هو ذا حصن كعب بن الأشرف بعينه أم هو حصن سواه؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال

' أمهد للقارئ بما رواه المؤرخون عن موقع الحصن، ومنازل النضير، التي هو من جملتها

في وفاء الوفاء: أنه لما هتف أبو نائلة بكعب بن الأشرف، وهو في حصنه ببني النضير ليلة قتله، نزل له

وفي سيرة ابن هشام، و «الكامل» لابن الأثير، ذكر لحصن كعب، ولكن بدون تعرض منها لموقعه

بحثت عن منازل بني النضير التي فيها الحصن، فعثرت في (وفات الوفاء، ومجلة الزهراء، على أنها تقع بحرة زهرة: (الحرة التي هي بطرف العالية)، وبأطراف وادي مدينيب، وبالنواعم وما والاها الى الحرة وفي هذا الصدد يقص لنا السمهودي مشاهداته فيقول: ورأيت بالحرة في شرقي النواعم آثار حصون، وقرية بقرب مذينيب يظهر انها من جملة منازلهم (يعني منازل بني النضير)

بعد هذا التمهيد أقول: إن ما قمت به من بحث وتنقيب عقب البحث العلمي الأنف ذكره قد أكد في نظري تأكيداً باتاً، أن الحصر الموصوف هو حصن كعب بن الأشرف بعينه، واليك الدليل:

يقول المثل السائر: أهل مكة أدرى بشعابها. ولذا اهتممت بالوصول إلى حقيقة هذا الحصن من طريق الاستخبار من أهل هذه القرية.. كان جواب أحدهم، لما سألته عن الحصن ولمن هو في الأصل؟: هذا حصن النصارى! فبادر زميل له بجانبه لتصحيح إفادته وقال: هذا حصن النصراني .... وسكتا، وصمت أنا مفكراً في جوابيها المتحدية في المآل: حصن النصارى أو النصراني.. عجيب هذا القول، وغريب هذا الفهم النصارى لم يستوطنوا هنا قط فأنى لهم تشييد حصن ضخم كهذا؟! وإذن لمن الحصن؟ لا غرو أن البدو الأميين يجهلان الحقائق التاريخية، وإنما مبلغهم من العلم أخبار وأقاصيص، يتلقف شفوياً من آبائهم عن أجدادهم يتناقلها منهم خلف عن سلف، ويتطرق اليها التحريف والالتواء والتغيير..

وبالتالي، فالبدو هنا لا يميزون بين اليهود والنصارى سوى المسلمين عندهم نصارى، فالنصارى يهود، واليهود نصارى وإذن ماذا استفدنا من قول الرجلين؟!

كل ما استقدناه منهما أنهما متفقان على أن الحصن قديم لغير المسلمين.. وغير المسلمين هنا قديماً هم اليهود، وكعب بن الأشرف وإن كان نبهانياً من طيء إلا أنه بحكم الخؤولة والجوار أصبح يعتبر واحداً من اليهود.

لا بأس! هذه فائدة علمية لها أهميتها في الموضوع، وإن تكن مبتورة.. فلنمض في بحثنا قدماً.. فالحقيقة بنت البحث كما يقولون.

في أثناء ذهابي مرة أخرى للحصن عام ١٣٤٧ هـ صادفت رجلاً قزماً بالقرب من الحصن اسمه (علي) يعرفني بقدر ما أجهله، وله بستان جميل في أم عشر، وهو من بني (علي) أهل هذه الناحية وعندما شاهدني مقبلاً إلى الحصن، نهض إلي، واستقبلني هاشاً باشاً وقال: وأنت مقصدك أن تتفرج على الحصن؟، فقلت له: نعم، فقال: «تفضل! هذا الحصن ملكنا من قديم وكان ..... وهنا قاطعته قائلاً: «إذن لمن هو في الأصل؟ فأجابني بسرعة: هذا هو

حصن كعب بن الأشرف.. وتقدمني مرشداً، وأراني الخراب الحادث به، من قبل فخري باشا، فشكرته، وحاولت الانصراف منفرداً،

فأسرع إلي، يتابعني. ولما حاذينا باب بستانه أقسم لأدخلنه معه، ولأقيلن عنده، سحابة يومي عنده، سحابة يومي.. ولظمئي دخلت معه البستان، فلما شربت الماء استأذنته في الخروج معتذراً، فقبل بعد إلحاح وتوسلات مني.

مشكلة علمية وحلها:

بعد الوصول إلى ما شرح، قامت في ذهني مشكلة علمية جديدة قيام الدلائل الموضحة سابقاً حالت دون اقتناعي تماماً بأن هذا هو حصن كعب بن الأشرف، برغم قيام الدلائل الموضحة سابقاً.

وتلك العقبة هي: أنه من أين يشرب سكان هذا الحصن إذا نفذ، ما معهم من ماء من الخارج. إذا كان هذا هو حصن كعب بن الأشرف وهو معّد للإقامة، والحرب، والحصار؟! لا بد من وجود بئر بداخله، ليتحقق أنه هو، وإلا فلا.. ومما أذكره أني لم أعثر على بئر بداخله أثناء جولاتي في رحبته وأنحائه الداخلية

قد يقول قائل: كثير من الحصون لا آبار فيها، فأقول له: نعم، ولكن ليست كلها سواء، فمثل حصن كعب، المعد للإقامة والطوارئ معاً، في موقع كموقعه، ومكانة كمكانة صاحبه، لا بد أن تكون فيه بئر داخلية " سداً لثغرة

الاحتياج إلى الخارج في ألزم شيء الحياة الإنسان، وهو الماء، إذا اشتد الأمر، وحوصر من هم بداخل الحصن مدة طويلة، كما هو متوقع.

في الحق إن مشكلة عدم عثوري على بئر بداخل الحصن، اغتص بها ريق فكري أمداً مديداً، وفكرت فيها شهوراً، وحادثت عنها بعض الرفاق.. حتى كان عام ١٣٥١ هـ، فذهبت في أحد شهوره معهم إلى الحصن، فوجدنا - مصادفة - صاحبي علياً، وبعد التحيات والترحيبات والتعريفات، أعاد كلمته الأولى: أنتم مقصدكم أن تتفرجوا على الحصن؟ ... فقلنا: (نعم)، فتقدمنا يقفز أمامنا بخفة ورشاقة. فوق حجارة الحرة، وصار يدلنا، ويحكي لنا حكايات عن الحصن. ويقول: إنه ورثه من أجداده، وإنه، وإنه فاجأته بسؤال مستوضحاً ومختبراً: (يا أخي علي! أين البشر؟ لا بد أن تكون بداخل الحصن بئراً!) وحالاً أفاض علي، بما طيب الخاطر وحل عقدة الإشكال

قال: تعالوا أركم البئر رأي العين، ها هي ذي: (في الجهة الجنوبية خارج الحصن ملاصقة له) وقد انهارت بطول الزمن»

فقلت له: «إذا كانت بئر الحصن هي هذه، على ما تقول، فالمستقون منها، لم ينجوا، بعد، من خطر الأعداء، لأنها خارجة عن الحصن ...

قال: لا ...وإن مدخل البئر من داخل الحصن هنا (وأشار إلى مكان بداخل الحصن مناوح للبئر الخارجية) يسلم حجري يهبط منه المستقون، من تحت هذا البرج، وقد دفن التراب والحجارة المدخل والسلم، وقال: أولا ترى هذا البرج؟»

قلتُ: «بلى. إني أراه!»

قال: «بعد أن يهبط الواردون إلى البئر من الدرج الذي أشرت لك به، يقف الرجال حاملي السلاح في هذا البرج لحراستهم إذا أحوج الحال».

وبهذه المحاورة الطريفة التي دلت على رجحان عقل صاحبنا (علي) وتمكنه من الموضوع، وبمقارنة إفاداته مع ما مر ذكره المؤرخين على أن الحصن يقع في منازل بني النضير، وأن منازلهم، بأطراف هذه الحرة التي فيها الحصن المبحوث عنه يتضح أن هذا الحصن، هو حصن كعب بن الأشرف بعينه.

وهو بضاحية المدينة الجنوبية الشرقية، وبينه وبينها نحو ساعة ونصف الساعة، بالسير العادي للإنسان ".

والطريق الموصل اليه منها هو هكذا: «باب العوالي - طريق قربان - أم عشر - أم أربع - جزء صغير من الحرة - الحصن).

الجبل المتوهج

وبعد ذلك.. كانت هوايتي الأولى منذ صدر شبابي، التنقيب عن الآثار ومعرفة أخبارها وتطوراتها، وساعدني على ذلك كثرة الآثار بالمدينة المنورة.. سواء ما كان منها جاهلياً عريقاً في الجاهلية، أم قريباً من الإسلام، أم ما كان إسلامياً في صدر الإسلام، وكانت أولى خطواتي في هذا الميدان قراءة الكتب التي تبحث عن آثار المدينة في القديم مثل كتاب (وفاء الوفاء) للسمهودي، وكتاب المطري والمراغي وغيرهم من قدامى العلماء الإسلاميين الذين عنوا عناية خاصة بآثار المدينة المنورة في عهودهم المتتابعة.

ثم كانت الخطوة الثانية الاستقراء العملي والدراسة الواقعية، لما كتبوا عنه، فكنت لذلك أتجشم مشاق الوصول إلى كل ضاحية وناحية تحدث عنها أولئك المؤلفون، مشياً على الاقدام، في أغلب الأحيان

وركوباً على الحمير، في بعض الأحيان.. إذا كانت المسافة نائية أو الطريق وعرة، لا يمكني المشي على الأقدام من الوصول إلى ما أبتغي الوصول اليه منها.

والمدينة ذات طقسين متباينين: أحدهما حار لافح، ويمثل أغلب نصف العام، وهو فصل الصيف والحرور، وثانيهما بارد قارس، شديد البرودة إلى حد نزول الثلج في بعض الفصول. وهذا الفصل هو فصل الشتاء. ولكن الهمة الطموح المنبثقة من جوانحي حينئذ لتحقيق هذه المهمة، كانت لا تدع لي مجالاً للتقاعس عن تحقيقها، سواءً أكان الزمن شتاء قارساً أم صيفاً لافحاً.. فكنت تراني أتجول في شوارع المدينة، يستوقفني مثلاً (حجر مسن، مثبت على باب عتيق ، أو دار متهدمة عتيقة ، أو مسجد قديم .. وكنت تراني أتجول في ضواحي المدينة، تحقيقاً مجرى واد مجهول الآن، ذكره قدامى المؤرخين، أو باحثاً عن منازل لقوم من الأنصار في إحدى تلك الضواحي، أورد ذكرها المؤلفون الأولون.. وكنت تراني في بعض الأحيان أتجاوز كل هذا وذاك مستطلعاً منقباً عن آثار لم يحدثنا عنها المؤلفون، كانت تستوقفي عرضاً أثناء تجولاتي فأقف مصراً، على حل طلاسم رموزها.. أقف تارة في صيهود الجو الملتهب وتارة في زمهرير الشتاء العتيق..، وكثيراً ما وفيقت إلى حل طلاسم من الخط، بالمقارنة والبحث والتأمل.. مثال ذلك أنه يوجد بقرب السد الواقع جنوبي غرب المدينة المنورة، رقعة بيضاء فسيحة من الأرض تحيط بها الجبال من كل ناحية، وبأحد تلك الجبال صخرة ضخمة ملساء، استرعى انتباهي اليها وجود نقوش عتيقة مضطربة عليها فوقفت أمامها تحت أشعة الشمس الملتهبة، زهاء ساعتين، حتى اهتدين إلى حل هذا الطلسم من الخط العربي البدائي المنحوت على الصخرة ويا عجب ما قرأت وحللت! فقد دلني

ذلك على أن هذه المنطقة الجرداء القاحلة كانت في عصر من العصور القديمة رياضاً غناء، ومنازل أنيقة، ومرتاداً للشبان في تنزههم وروحاتهم وغدواتهم.. ذلك ما عبر عنه البيتان المنقوشان بالمسمار على تلك الصخرة اللهم الضخمة التي تمثل جانباً من جوانب الحبل المتقورين فيه كما سبق ذكره بإيجاز..

يقول أحد البيتين عن ذلك الوادي:

وإن الغواني لا يزلن يردنه وكل في سمح سجيته غض

هذا وقد دفعني حب الاستطلاع في يوم من أيام الصيف الملتهبة، إلى أن أمتطي حماراً، من المدينة المنورة "، وأتوجه إلى طريق (الجصة). وطريق الجصة اصطلاح لأهل المدينة يعنون به ذلك الطريق الأثري الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلم، في هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.. وقلت في نفسي: لا بد لي من استكشاف أواخر هذا الطريق بنفسي، ورؤية معالمه لأنه أثر من الآثار التاريخية المهمة.. يمثل نقطة تحول عظيمة في تاريخ الحياة

البشرية.

ومضيت على حماري بعد أن وضعت فوقه خرجتين للزاد والماء، في هذه الرحلة الاستكشافية، وحملت عصاً صغيرة من نوع الخيزران، أسوق بها الحمار إذا ما جمع، أو تبلد عن المسير ومضيت متجهاً صوب جنوب المدينة..

لقد مررت على قباء، وأخذت الطريق إلى.. جانبها الأيمن، في اتجاه جنوبي غربي.. وتركت بجانبي حديقة الرفيعة، ومن ورائها شاهدت (أطم الضحيان) ذلك الأطم الأسود الهائل القائم على ذراع الحرة الغربية وهو الأطم الوحيد الباقي من آطام الأنصار في عصر الجاهلية، وكان أحيحة بن الحلاح أحد

زعماء المدينة من الأوس قد بناه في عهد الجاهلية بالحجارة البيض الصغار فلما رآه عرضة للتهدم، أمر بنقضه وبناه بالحجارة السود الضخام،

وما يزال ماثلاً للعيان إلى اليوم، أثراً خالداً من آثار العرب القدامي في فن البناء.

وبدأت أتوغل في الحرة، ورأيت أمامي خطاً دقيقاً باهتاً أكل الدهر عليه وشرب، من خطوط الطرق القديمة الدقيق المتفاني يمثل طريق الحصة الأثري.. فهل هذا الخط وتتبعته ومضيت لا ألوي على شيء هذا جبل (عير» حد المدينة المنورة الغربي الجنوبي وتكاثرت الحبيلات عن يميني وعن شمالي، وبدأ حماري يتعثر.. إذا كانت الطريق وعرة مهجورة، والحجارة بها متوافرة.. وقد نفعت العصا، فصرت أزجر الحمار بها رجراً هيناً خفيفاً وأوجهه بها توجيها غير صارم..

ها أنذا الآن قد توغلت في الحبال، وقد مضت ثلاث ساعات على خروجي من المدينة المنورة وها أنذا أمضي قدماً.. ما الذي أريده.. الآن؟ ما الذي أسعى اليه؟ لا أدري! إلا أنني أزمعت المضي قدما لألبي هاتفاً عميقاً في نفسي، لا يريد لي العودة رغم طول ابتعادنا عن نقطة قيامنا.. لعل كل ما أريده استكشاف اللمسات الأخيرة الدانية من طيبة في طريق هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق..

ومضيتُ.. وتطامنت الحبال وصغرت وقلت وصات هضبان وتلالاً غير سامقة.. فسجلت هذا الاختلاف الطبعي في مذكرتي.

وها نحن أولاء الآن قد مضت علينا أربع ساعات في السير، وقد ارتفعت الشمس فوق رأسي حين توسطت كبد السماء. وكنت قد استعددت لهذا بمظلة تقيني الحر اللافح. ففتحتها فوق رأسي وقد رأيت إلى الأمام عن يساري جبلاً واطئاً، يلوح من بعيد مشرقاً متوهجاً أبيض وضاءاً، على عكس جميع الجبال والجبيلات التي مررت بها وكانت كلها سوداً، وداكنة، ونحاسة الألوان.. أما

هذا الجبل الذي أقترب منه رويداً رويداً، والذي يقع إلى اليسار من طريقي، فهو أبيض متوهج، يشبه الأضواء الساطعة في الليل الدامس، والشمس المشرقة في فجوات الضباب، والألماس المتلألي بين الحجارة السود ألا يكون إذن جبل الماس؟ لندع الخيال يسرح ويمرح.. فإنني مقدم على الجبل، وعما قليل سأكون عنده.

بلغت الجبل الساطع.. فما خاني البصر، وعند سفحه نزلت من على متن الحمار، وقيدته حتى لا يتغير مني في هذا البلقع الموحش وأخذت عصاي بيميني، وتقدمت للصعود إلى الجبل، فإذا حيوان أخضر ناضر الاخضرار، أكبر قليلاً من القيط وأصغر من الكلب، يقف لي فوق سفحه بالمرصاد، فأخذت حجراً من الحجارة الكثيرة - وكنت رماءاً بالحجارة - وألقيت بالحجر على هذا الحيوان الأخضر الناضر الاخضرار، الذي لم أر له مثيلاً من قبل، سوى الحرباء الصغيرة التي تتلون بلون ما تقف عليه، فيخضر لونها إذا كانت على غصن أخضر.. وبمجرد أن وقع الحجر قريباً منه وثب عليه، فعضه، وسرعان ما أتبعت الحجر بحجر آخر مثله، في رمية أقوى من الأولى وأعنف، فلما استهدفه الحجر وكاد يصيبه وتب بعيداً عنه، وما إن هبط على الأرض حتى وثب عليه فعضه عندها آثرت المهادنة ... فقد يكون هذا الحيوان ساماً وخطيراً وقد يكون مفترساً عارماً، وقد يكون، وقد يكون عندها.. الخلاصة أني آثرت بعدها طريق المسالمة فانتحيت قصياً عن طريقه.. ومضيت في ترقب وحذر، إلى الجانب الآخر من الجبل..

ويا لدهشتي فقد لاحظت عندئذ أن الجبل كله فصوص ذات بريق مشرق ... وعدت إلى حماري المقيد، فأخذتُ الخرجين، ووضعت عدت فيهما كمية لا بأس بها من الفصوص ذات البريق الخاطف. ثم عدت إلى الحبل ثانية فاسرعت نظري هذه القبيبات الواطئة المنتشرة كالبثور على سطحه المتكور من كل ناحية.. نفسه إنها قبيبات من حجارة الجبل نفسه ولكنها الحجارة السود الكبيرة والمتوسطة.. فقد ظهر لي أن الجبل ذو ثلاث طبقات.. طبقة الفصوص

المتوهجة ذات البريق الخاطف وهي العليا البارزة للعيان وطبقة الحجارة الكبيرة والمتوسطة وهي سوداء اللون. وتحت الطبقة السالفة طبقة الصخور الكبرى الله تمثل كيان الحبل الداخلي، وهي سوداء وصفراء باهتة اللون يتخللها تراب وطين أحمر.

وقفت عند قبيبة من هذه القبيبات الواطئة المنبئة على الجبل الغريب، ومن باب الاستكشاف، أقدمت على محاولة رفع حجر من حجارة احداها.. وبجهد تمكنت من رفع الحجر، ونظرت إلى داخل القبيبة، عن طريق الثغرة التي أحدثتها برفعي الحجر.. فبهرني شاهدتُ.. لقد شاهدت داخل القبيبة هياكل بشرية ممددة ثلاثة وأربعة وخمسة في كل قبيبة، ولكن هذه الهياكل البشرية العظيمة الضخمة، مجردة عن اللحم تجريداً تاماً وهي أضخم بكثير من الحالية.. في الجمجمة والأذرع والسيقان والأقدام وفي كل شيء وذهبت إلى قبيبة أخرى ففتحتها أيضاً بعد جهد، فإذا بالمنظر نفس بتكرر.. عندها علمت أن هذه مقبرة مجهولة، عريقة في القدم يتكرر.. والشيء الذي حز في نفسي هو أنني أدركت من وقتها أن هذه المقبرة لا بد أن تكون جبانة لمدينة قريبة منها وكم وددت لو تمكنني المقادير من استكشاف موقع المدينة القريبة من هذه الحبانة؟ ... ولكن الشمس بدأت تميل إلى الغروب، وخشيت البقاء وحدي في هذا القفر الموحش، خصوصاً بعد أن كاد الماء ينفد من الركوة المعلقة على الحمار.. وسرعان ما عدت لامتطي حماري، وأرجع أدراجي إلى المدينة من الطريق التي أتيت منها، فوصلت اليها والشمس قد آذنت بالمغيب، وقد سقطت وراء الأفق البعيد.

إنها رحلة شاقة ولكنها ممتعة.. أما ما التقطته من الفصوص فقد بقي لدي فترة من الزمن، ثم رأيت عرضها في سوق سويقة بالمدينة وبالفعل عرضتها. وفهمت أنها ليست بألماس كما توهمت، وإنما هي من هذه الحجارة المعروفة في المدينة (بحجر المدينة).. وهي تستعمل.. قيمتها أيضاً فصوصاً للخواتم كالألماس تماماً ولكنها ضئيلة القيمة يومذاك أشبه بقيمة الألماس الصناعي

اليوم ... لقد بعت كل ما جمعته يومئذ منها بخمسين ريالاً فقط وكان الذي اشتراها مني بالحملة أحد الباعة بالمدينة في سويقة وقال لي: إنه سينحتها وينظمها ويعمل منها فصوصاً براقة كألماس ليبيعها للزوار في موسم الحج القادم هكذا آل مصير الفصوص التي ظننتها ألماساً، وهكذا تبخر حلمي بالألماس وذلك كان آخر عهدي بالحبل المتوهج..

إصدارات دارة المنهل
للصحافة والنشر المحدودة

كتاب
المنهل
٢٠

أدبنا الحديث ... كيف نشأ ...
وكيف تطور

تأليف
عبدالقدوس الأنصاري

إعداد ومراجعة
أ.د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري

الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

دور الفردية والثنائية

فلما ذر قرن الصحافة الحديثة والأدب الحديث على المدينة في بصيص ضيق وفي إطار أضيق كان هناك شابان زميلان متطلعان، أحدهما: السيد عبيد مدني والآخر عبد القدوس الأنصاري.

كان الفتيان في سن الشباب زميلين في الدراسة على شيخهما المغفور له الشيخ محمد الطيب، وكان هجراهما الدراسة فالمذاكرة، وقد كانا يتذاكران في الأدب العربي القديم، إما في لفظة لغوية أو في معنى بيت شعري جاهلي قديم أو إسلامي أو مولد وإما في نسبة قصيدة لقائلها أو لآخر.. وربما أدت بهما المذاكرة إلى استحسان معنى بيت غزلي أو استهجان بيت هجائي أو غير ذلك، وكانا تارة يتناقشان حتى يؤدي بهما النقاش إلى الجدل أو إلى ما يشبه الجدل ....

وأذكر بالمناسبة أن المناقشة في موضوع أدبي بلغت بهما في أمسية من الأماسي إلى حد التأثير العميق فيما يشبه القطيعة.. لقد تعصب كل منهما لرأيه وكان كل واحد منهما يرى أنه هو على الحق ... وبعد أيام لم يشعر كاتب هذه السطور إلا وخادم من خدم صديقه يقدم له ورقة كتب عليها صديقه بيتين هما:

صديقي إلام الهجر فالهجر باهظ أمالك من صوت المودة واعظ؟

فإن تك قد ضيعت ودي فإنني لودك ما دام الجديدان حافظ

وما أن قرأ راقم هذه الحروف هذين البيتين المليئين بروح الوفاء والصدق في الإخاء حتى زال كل ما كان عالقاً بجوانحه من آثار التأثر العميق الذي

حمله مكرها، غير جازم ولا عازم على القطيعة وذهب في الوقت ذاته إلى منزل صديقه النبيل في شارع سويقة وتصافيا وعادت المياه الى مجاريها.. أحسن مما كان.

وإذا ذكرت البيتين فلأنهما يدلان على نضج مبكر للصديق السيد عبيد مدني في عالم الشعر الحديث المطعم بجواهر الشعر القديم ... فالبيتان يعتبران نموذجا حيا رائعاً من نماذج شعر الأخوانيات لا في أسلوبهما الجزل الجميل فحسب، وإنما في معانيهما البارعة التي أدت المعنى المروم على خير ما يكون الأداء.. وقديما قيل: الحديث ذو شجون والشيء بالشيء يذكر ...

ولست بمغرب في القول ولا مبالغ فيه إذا أنا قلت إنه على يدي هذين الشابين:

عبيد مدني وعبد القدوس الأنصاري، كانت نواة ميلاد الأدب الحديث في المدينة المنورة قبل أي ناشئ آخر من زملائهما ...

ومما يجدر ذكره أن الزميلين وحدهما - وفي سرية تامة كانا يتدارسان كتب الأدب الحديث في نثره وشعره، وكانا حذرين أشد الحذر من أن يطلع أحد ما من أصدقائهما أو معارفهما على قيامهما بهذا التدارس وكانا حريصين على إخفاء ما كان لديهما من كتب الفكر الحديث، ومما أذكره من هذه الكتب التي كانت تحت أيديهما في سنتي ١٣٣٨ هـ و ١٣٤٤ هـ (١٩١٩ - ١٩٢٥م) دائرة معارف فريد وجدي، وكتب المنفلوطي : النظرات، وماجدولين، وسيرانو دي برجراك ومن المجلات مجلة المقتبس السورية، ومن الصحف الأهرام، وكان اسم الكتابين الأخيرين ثقيلا في نظريهما وعلى لسانهما، ولم يكونا يستسيغان الاسمين وإن كان قد أعجبهما موضوعا الكتابين، وبخاصة سلاسة بيان المنفلوطي ووضوحه وتمكنه من ناصية اللغة العربية قديمها والحديث .. وقد أعجبهما بشكل خاص وجذب انتباههما صورة المنفلوطي في عمامته الأزهرية وفي قفطانه المقصوص الياقة

(جبته) وملامحه العربية الأصيلة ... ولا شك أن لهذه الصورة العربية الإسلامية وقعا حسنا في نفس الفتيين، وأذكر أني كنت أستعير كتاب ماجدولين من أخي عبيد فأدسه في جيبي وربما لففته بورقة تخفى اسمه عن عيون الفضوليين.. وبخاصة أن مطالعة كتب الأدب الحديث ومطالعة الصحف الحديثة كالأهرام والمقطم من قبل ناشئ تجعله محل سخرية، ومكان نقد لاذع لدى جمهور الناس وبخاصة العلماء والمشايخ والطلبة وربما وصموا من عرفوا فيه الميل

أنه منحرف ومنحل العقيدة والأخلاق. بمعنى(فرسوني)إلى هذه الكتب بأنه .

وكان أحسن مكان وأصفاه لمذاكراتنا الأدبية الحديثة ومدارساتنا لكتب الأدب الحديث إذا جاء يوم الخميس وهو يوم العطلة إذ ذاك فنجمع أمرنا على أن نطلع - أي نخرج إلى بعض الحدائق الموجودة في شمال المدينة المنورة.. والحديقتان اللتان نقيل ونبيت بهما أكثر من غيرهما هما المفتية والمصرع بشمال المدينة المنورة، وكنا وحدنا نقوم بإخراج ما كنا تخفيه من كتبنا الأدبية الحديثة التي نزمع تفهمها وترسمها فيما ننشئ من شعر ونثر، ونأخذها ونقرأ منها ما يروق لنا ونتذاكر فيما أشكل علينا من الأهداف والمغازي والمعاني الغامضة، ومن هذه الكلمات والتعابير قولهم "النزعة الفكرية لدى فلان" ، "وفلان مستهتر" ، "هذا الأمر يسود ..." ، " بالرغم من كذا فقد حدث كذا" ، "الاستعمار"، "مرجحاً"، "في هذا الظرف" ، "خلابة" ، "بموج صراخ فلان في زوايا منزله" ، "مخلب القط" ، "ينبثق " ، "الود الحقيقي هو ذاك الذي ينبثق من داخل الإنسان" ، "يحبذ كذا إلى عبارات حديثة كثيرة لم نألفها في أدبنا القديم الذي كنا قد درسناه وفهمناه .

فإذا وصلنا إلى نتيجة مرضية لدينا فيما كنا نخوض فيه من حديث ومداولات حول هذه العبارات الجديدة علينا وهضمناها هضما كاملا شاملا سررنا بهذه النتيجة واعتبرنا ذلك كسبا جديدا لنا. وإذا ما استبهم علينا أمر

من الأمور فيما كنا نتدارسه تركناه لفرصة أخرى، فإن الأدب الحديث يفسر بعضه بعضا.

وجدير بالذكر أن متابعة هضم هذه التعابير العصرية كان يأخذ منا جهدا متواصلا وتفكيراً مرهقا وكنا نلجأ إلى دائرة معارف فريد وجدي وقد صار الأدب الحديث يكشف لنا عن شخصيته وملامحه وتقاسيمه تدريجياً حتى أوفينا على الغاية فيما بعد.. بحمد الله كنا أساتذة أنفسنا.

وكنا نشحذ القرائح ونقوم بالتمرينات الكتابية المستمرة ونمزق الشيء الكثير مما لا نرتضيه منها لكي ننفلت من جاذبية أسلوب مقامات الحريري وسجعات يتيمة الدهر للثعالبي وأضرابهما من كتب الأدب القديمة المحشوة بالسجع المتكلف الذي يذبذب

المعاني المقصودة، كان ذلك في سنة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م ولقد كنا أساتذة أنفسنا في تفهم أساليب هذا الأدب الطارئ الجديد، فقد أدركنا أن أساليبه تختلف عن أساليب الأدب العربي القديم بما طعم به وأدمج فيه من تعابير وأفكار تمت إلى الغرب بصلة قوية. ومع المحافظة على الطابع العربي بشكل عام، فإن طابع هذا الأدب شيء جديد على سلفه الأدب العربي القديم.

وبعد أن استوعبنا مفاهيمه بقدر الإمكان بدأنا نتمرن عليها وذلك بمحاكاة ذويه من غير أن ندخل حظيرة السرقة، وإنما هي المحاكاة المجردة التي تمليها الاستنارة بما يحتويه هذا الأدب من عبارات طرية وطارئة عليها وليس غير ذلك.

ومما يحسن ذكره بالمناسبة أن طريقة الإنشاء العربية القديمة قد أصيبت بانحراف آخر في العهد العثماني الأخير، فكانت المدارس الإعدادية التركية تعطي الطلاب إنشاء ركيكا لا هو عربي محض ولا تركي محض، ولكن يجمع الركاكة في الإنشاءين.

ومن شواهد ذلك ما كانوا يعلمونه ويلقنونه الصغار من المراسلات مثل: (حضرة

جناب سيدي الوالد كثير الفضل والمحامد) الخ.

على ذكر الشعر والنثر أذكر أن أول ديوان حديث تدارسناه هو ديوان شوقي وحافظ في طبعتهما الأولى ولا تزال طبعتا الديوانين في مكتبتي الخاصة حتى اليوم وعليها تهاميش مني وتعاليق.. وأذكر أننا تجاوزنا مرحلة الدراسة التحضيرية الشخصية للأدب العصري في لونيه الشعري والنثري، وتعمقنا في فهمه وصار لنا ما يشبه الملكة في مزاولتهما من كثرة ما نمارس التجارب في اقتحامهما.. ولدي مسودات مقطوعات وقطع من قصائد من هذا النوع لم تكتمل وبقيت على ما هي عليه حتى اليوم ولم أرد أن أجري فيها تعديلا أو تحويرا. وأذكر أني وجدت في سوق المزاد نسخة مهلهلة من قصة "البعث التي كتبها مصطفى لطفي المنفلوطي فعكفت ذات صبيحة من أصبحة يوم الجمعة على قراءتها بعدما أغلقت باب الغرفة، وأظهرت نفسي نائما لئلا يدخل علي داخل أو فضولي فيقطع سلسلة مطالعتي أو يستكشف حقيقة ما أنا أقرؤه ...

وأذكر أني كنت مستوعبا لكل ما تحويه هذه القصة وقد تأثرت بها بالغ الأثر فإذا أنا انشج بالبكاء من جراء مواقف يوم القيامة التي صورتها القصة المنفلوطية بأسلوب المنفلوطي الساحر الفريد.

ومن الحق أن أقول: إن نضج السيد عبيد مدني ونبوغه في الأدب الحديث شعراً ونثراً كان مثار إعجابي وتقديري.. كان المجلي وكنت بعده أسير الهويني .. والسيد عبيد يعتبر في نظر الواقع بالنسبة لأدب المدينة الحديث هو الرائد الأول، وكنت بعده مباشرة. ففي السنوات الوسطى من دراستنا للعلوم والآداب العربية القديمة على شيخنا الشيخ محمد الطيب الأنصاري كنا متفردين متكتمين حذرين بممارسة الأدب الحديث دراسة وتفهما

ومذاكرة وممارسة مبدئية ... وقد نبغ السيد عبيد مدني في ذلك كله نبوغا مبكراً. وآية ذلك واضحة فيمن يدرس ديوانه الضخم الذي لا يزال مخطوطا لديه: (المدنيات (فمن يدرس هذا الديوان المنوع الموضوعات ويدرس تسلسل قصائده حسب تواريخها المدونة فيه يدرك أن ما أقوله هنا ليس فيه أي ريحمن مبالغة أو تزيد.

ومرت ثلاث سنوات على غرس البذور التي كونت نواة أدبنا الحديث، مرت والبذور لا تزال كامنة في أحضان جوها المتكتم الفردي والثنائي. ومن أسباب ذلك شدة التزمت العام ضد هذا اللون من الأدب ... أيا كان مزاولة أو المغرم به.. ولما دخلت سنة ١٣٤٠هـ / ١٩٢١م كان الجو السياسي جد مضطرب وغائم بالمدينة المنورة وبالحجاز عامة.. فقد بدا للناس أن هناك رياحا جديدة تهب أعاصيرها على البلاد وشغل الناس بهذا الحدث الجديد وأخذ التفكير يستبد بهم ... وبدأ التساؤل عن المصير يجول في المجالس الخاصة والعامة. وفي عام ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م زحفت جنود السلطان عبد العزيز آل سعود على الحجاز مبتدئة بتربة فالطائف فمكة، وما بين مكة والمدينة من مدن وموانئ وبادية.. ثم بدأ زحف الجيوش السعودية صوب المدينة يأخذ شكلا جديا ... وبدأ طرق الحصار يضرب على أرجائها.

وفي سنة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م أحكمت حلقات الحصار فازداد حنق الناس، وأصبح الجو حربيا محضا ... ثم أحكم الحصار على المدينة المنورة وصارت ميدان حرب .... كانت قنابل المدافع تلعلع من جبل سلع صباح مساء، يلقى بها رماتها على المغيرين خارج المدينة في العوالي وقربان والعيون وما إلى ذلك. وفي هذا الظرف الذي كان الناس فيه مذهولين بواقع المعارك الدائرة بدأت بذور الأدب الحديث تخرج أغصانها إلى حيز الوجود.. وبدأ بعض شباب المدينة يعرف ما كان يخبؤه الفتيان عنهم فقد أطلعوهم على بعض مناهج دراستهما وشاركوهم في تطلاب اقتناص الأدب

الحديث من بضعة الكتب والصحف التي كانت قد وجدت في ظروف متفاوتة بالمدينة.

وقد بدأ الشعر الحديث حينئذ يؤتي ثماره المبكرة.. وأذكر أني كنت دخلت المسجد النبوي في عصر يوم كانت المدافع تلعلع فيه من كل جانب، ولحقت الإقامة التي تقام بالمكبرية بالمسجد النبوي الشريف الإمامة الإمام المالكي العثماني، فزاحمت الناس حتى دخلت الصف الثاني وكان معي مراهق يزاحمني حتى ضايقني فارتجلت

قبيل تكبيرة الإحرام بيتين هما :

ما عرفت الأولاد تدخل في الصف إذا كان فيه أكبر منهم

إنما الصف للرجال إذا كانوا
كبـــــــارا وغيرهم ؟

وأيا ما كان الأمر في البيتين من ناحية الصوغ المرتجل فإنهما ينبضان بروح شاعرية تصف الواقع كما تضفي عليه روحا من النقد اللاذع.

كما أذكر أني بعد أن صليت صلاة العصر تلك أزمعت أن أذهب إلى محلة الساحة بشمال المدينة المنورة لأزور فيها زميلنا المرحوم الشاعر الشيخ عمر البري ... وكنت ظمآناً فداخلني اضطراب فكر.. أأشرب من (الدوارق) الباردة المياه المرصوصة في الأحواض بالمسجد النبوي أم أذهب فأشرب في دار الشيخ عمر البري.؟ وتضاربت الأفكار وداخلني شيء من الحيرة في أي الأمرين أنفذ ... وأخيرا لم أشعر إلا وبيتان

مرتجلان يحسمان الأمر المختار فيه، والبيتان يتضمنان أمراً صارما من شخص جردته من نفسي، بأن أشرب من ماء دوارق المسجد النبوي وأرتوي من مائهما الزلال ثم أتوجه إلى ما أقصده فلست أدري ما يكون

وأنا في الطريق من المزعجات فإن قنابل مدافع الشراينال (المتفجرة كانت تلعلع فوق رؤوسنا صباح مساء بدون انقطاع خوفا من

هجوم مباغت، وهذان البيتان هما:

إشــرب ولا تذهـــب على ظـما
بهاتيك الــمسالك

فلربما كانـــت أمـــور لست
تعـلمها هنــــالك

كما أذكر أن صديقنا المبرور الشيخ عمر البري كان في أصيل يوم من أيام الحصار الضارب قد أرسل إلى نجله الأكبر المرحوم عبد الكريم البري لأذهب معه إليه من المسجد النبوي الذي كنت فيه إلى دارهم بالساحة ... وكان الجو ملبداً بالنذر والذعر منتشراً في كل مكان، فحاولت التخلص من عبد الكريم البري بالاعتذار بالحال الواقعة فما قبل مني ولازمني ملازمة الظل والزمني بأن أذهب معه.. فاضطررت اضطرارا للاستجابة لرغبته الصادقة ولكني ما شعرت إلا وبيتان يفيضان من الذهن على اللسان وفيهما

أخاطب أباه المبرور:

إذا أرسلت في الحاجات شخصاً فلا
ترسل سوى عبد الكريم

يلازم تلكم الحاجات حتى يوفيهــا
ملازمة الغريـــم

ومن الحق أن الأبيات المرتجلة المتقدمة كانت تفوح منها روائح أشعار يتيمة الدهر ولكنها على كل حال لا تخلو من نفحة شعرية حديثة بوصفها للواقع بدون تكلف بديع أو تنميق ألفاظ. وأذكر فيما أذكره أن قصيدة قافية

الكاف خفيفة الظل والروحلا تخلو من رسيس من الشعر الحديث كان الشاعر الشيخ محمد عمر البري ومعه

كاتب هذه السطور قد ارتجلاها في إحدى المناسبات المهمة ... وها أنذا أذكر بعض أبياتها ... والأشطار الأولى فيها للشيخ عمر البري والأخرى لي ... ومطلعها:

يد الأيام كفى سطو بأسك فلا نقوى على أدنى مراسك

والقصيدة تربو على (.....) (فراغ في الأصل) بيتا وقد سارت في هذا السبيل السلس الواضح من أولها حتى آخرها ....

وفي ذلك الوقت المليء بالمزعجات والحرب دائرة الرحا كانت تصلنا أعداد متقطعة من جريدة "بريد الحجاز" وكنا نقرؤها قراءة عارضة وعابرة.. ولا نعيرها اهتمامنا لأنها تتحدث عن الحرب والسياسة.. وما ينشر فيها مما يجيش بأخبار حرب أو دعاية حربية فما هو شعر كان لا يسترعى اهتمامنا كثيراً لأنه ضرب آخر من الشعر السياسي ... ونحن منهمكون إذ ذاك في متابعة دراسة الشعر الاجتماعي الوصفي والغزلي الخ .... وإذن فلم يتم اتصال بيننا وبين جدة أدبيا إذ ذاك، فقد كانت وسائل الاتصال كلها مفصومة ومقطوعة من قبل، وزادتها حالة الحرب التي كنا نصطلي بنيرانها إذ ذاك بعدا ونايا وانفصالا.

ولا بد من ذكر حقيقة ذات صلة مباشرة بهذا الاتجاه الأدبي الحديث.. كان أغلب الكتب التي كانت لدينا إذ ذاك مما جلبه بطرقهم الخاصة (كتبيو) المدينة القدامي المعاصرون الذين انتقلوا فيما بعد إلى رحمة ربهم ... وهم كل من السيد حسن أوليا وابنه السيد ذكريا أوليا ... وكانت مكتبتهم أحفل مكتبة بالمدينة بالكتب العربية والإسلامية القديمة ... وكانت تقع على الجانب الأيمن من باب السلام بالنسبة للخارج من المسجد النبوي ... وكان

أمامه تقع مكتبة يوسف خلاوي ... ويوسف خلاوي كان شابا طموحا متحركا والمعيا ... ومكتبته كانت هي التي تمدنا ببعض حاجتنا من الكتب الحديثة ... وبجانبه الشيخ رجب مجلد. وكانت مكتبته دينية وربما يوجد لديه كتاب من الكتب العصرية فنشتريه منه وكان هو وربيبه حمزة يساعداننا خفية على هذا الامتلاك.

ومما أراه واجب الملاحظة في هذا الباب أن الفقر الضارب اطنابه في المدينة قد كان أحد عوامل إمعان الشباب في طلب العلم والآداب ... والعلوم والآداب غذاء للروحوهي تغذي الروح بقوة وحماسة وعزم محقق إذا كان طالبها خاوي الوفاض، بادي الأنقاض ... إذ انه والحالة ما ذكر لا يجد مشغلة عنها.. فلا مال لديه يصرفه في جد أو لهو.. فليتفرغ لطلب العلم في حدود ما يجد من قوت وكساء ومسكن وجو ... فالعلم نور والنور على كل خير من الظلام.

وما أن انقشع ضباب الحصار عن المدينة المنورة سنة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م، ودخلت الحكومة السعودية وبدأ الاستقرار يضرب أطنابه في المدينة المنورة وعلى أرجائها ونواحيها وضواحيها وبواديها، إلا وقد شعر الناس حينئذ بأن عصراً جديداً سعيداً ... بدأ يخيم عليهم بعد تسع سنوات عجاف مليئة بالخوف والاضطراب والقلق وقد رفعت مع ضباب الحصار ستائر حصار الأدب الحديث قليلا قليلاً، وأحسسنا بالأمان من أن نوصم بالفرسونية وحينئذ بدأنا نطلق شيئا من أضواء هذا اللون من الأدب تدريجيا فانضم إلى موكبنا إخوة لنا في أسناننا ومن زملائنا، وهنا بدأ التحسن والتقدم الخاص يطرأ على موقف الأدب الحديث الخائف المذعور، وأصبح شبه مقبول لدى بعض من كان لديهم مرفوضاً ... وأصبح الناس يقدرون من يزاولونه وصاروا يشعرون برقي أسلوب كتابتهم وشعرهم عما كان عليه هذان ... وصار بعض الأكابر يستكتب بعض الناشئة الذين عرفوا

بممارسة الأدب الحديث ... يستكتبونهم في مكاتباتهم الهامة وفي شئونهم ذات الأهمية البالغة

إصلاحات في لغة الكتابة والأدب

عبدالقدوس الأنصاري

الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م
إصدارات دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

اللهجة المصرية بين التأثر والتأثير

اللهجة المصرية في الاصل كما يبدو،لي مزيج مركب من اللهجات العربية والعامية الحجازية والمغربية والسورية وتحتوى على الكثير من الكلمات الدخيلة على اللغة العربية بحكم من امتزج بهم اهل مصر من أتراك وغير أتراك. وقد انصهرت هذه اللهجات في بوتقة اللهجة المصرية العامية التي نراها اليوم فأصبحت مصرية. وهذه اللهجة المصرية هي ذات فرعين متمايزين بارزين: الفرع القاهري، وهو يمتاز بخفة التراكيب وبالتوقيع وبالنبرات والانكماشات والامتدادات ، وقد اصبحت معروفة متميزة بطابعها المعروف وهي رقيقة كرقة لغة اهل الاستانة في التركية.

وميزتها وعلامتها الفارقة هي شيئان بارزان فيها وهما:

قلب القاف همزة أنّى وجدت في أية كلمة عدا كلمة (القاهرة) فلا يقلب فيها (القاف) همزة، بل يبقى على حاله.. فالقلب هو «الألب» والقلم هو «الألم» والقرب هو «الأرب» وهكذا دواليك وهذه الظاهرة العجيبة ليس لها مثيل في اللهجات العامية المتداولة بين العرب المولدين مطلقا ولا نعلم منشأها فان العرب المولدين شأنهم مع القاف أحد أمرين إما أن يقلبوها الى جيم فارسية، وهذا صنع الاغلب الاعم في الحجاز ونجد واليمن وسورية وجنوب مصر واما ان تبقى قافاً. كما هو الشأن في اللهجات العامية بتونس والعراق والجزائر والمغرب الاقصى وهناك قسم او فريق في سوريا تابع القاهرة في وضع هذه القاف فنطقوا بها ألفا وهذا على ما يظهر لي ناشيء من الاتصال

المباشر الذي كان بين حكام القاهرة وسورية في عهد حكام الاتراك ومحمد علي باشا ومن بعده من ولاة سوريا المصريين..

والعلامة الفارقة الثانية من علامات لهجة القاهريين هي قلب الجيم العربية الى جيم اعجمية فالجمل، «هو الكمل» والجلوس هو «الكلوس»، والجبل هو«الكبل» وهكذا وقد انفردت مصر بهذا الوضع الشاذ الغريب دون سائر بلاد العروبة ، وقد حُدِّثْتُ حديثا ظريفا في هذا الشأن يتلخص في ان التفريق بين حجاج المغرب الاقصى وحجاج مصر في سنة من السنوات الماضية قد أشكل وتعسر فقد اختلط أمرهم على من يهمه الامر بالباخرة في السويس في احدى سنوات احد الخديوين فالكل بيض. والسحن عربية متشابهة والجميع في ملابس الاحرام وكلهم يرومون الصعود الى الباخرة متدافعين وقد احتار الموظف في التفريق بينهم فاذا بصديق له لبق فطن يقول له: قل لكل من يريد الدخول من هؤلاء الحجاج : انطق بهذه العبارة ، وبموجب نطقه تدرك حقيقته. قل لهم لينطقوا بهذه الجملة : «الجمل طلع الجبل» وبنطقهم تميزهم . المغاربة ينطقونها بالجيم وبلهجتهم المستعجلة المقتضبة والمصريون سيمدون ما بين بعض الحروف وسينطقون بالجيم فارسية وبذلك تعرفهم بلهجتهم.. وكانت حكمة رائعة دقيقة انقذت موقف صاحبنا الموظف المحتار، وسرعان ما فهم كل شيء.

والفرع الثاني من فروع اللهجة العامية المصرية فرع اهل الصعيد وهم اعمق عروبة، واقرب قربا الى لهجة هذه البلاد وفيهم قبائل عربية نزحت قريبا وبعيداً منها الى مصر مما أثمر قرب لهجتهم الينا، وقد تفاعلت اللهجة المصرية فيه من قبل مائة عام مع اللهجة الحجازية واثرت تلك في هذه تأثيراً لايزال واضحا حتى الآن خاصة في المدن

التي كانت لها صلة مباشرة مع مصر ، وهي مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة وينبع والطائف ورابغ ، ففي هذه المدن تجد الفاظا وعبارات وتراكيب ولهجات هي الفاظ مصر وعباراتها وتراكيبها العامية ولكنها قد أصبحت اقليمية بعض الشيء . . ومن هذه العبارات عبارة «ماعليش» فانها لاتزال تقال في مصر ولكن بهذه الصيغة «ماعلهش» وعبارة «جبتلك هدا» المحرفة عن العبارة العربية الفصحى التي هي «جئت لك بهذا» او ما اشبه . فانها تقال في مصر حتى الآن ولكن على مقتضى اللهجة المصرية ، هم يقولون « كبتلك» بالجيم الاعجمية على حسب نطقهم الجيم العربية . . هذا في شمال مصر اما في جنوبها ، وهو الاكثر تفاعلا مع مدن الحجاز فانهم لا ينطقون بالجيم العربية جيما اعجمية كما يصنع اهل القاهرة ومن سار على دربهم من مجاوريهم ومقلديهم . بل إنهم ينطقون بها جيما عربية ؛ صنع اهل الحجاز . فالعبارة المذكورة آنفا متماثلة النطق تماما في النبرات والحروف بين الفريقين : أهل الصعيد . واهل الحجاز ونجد . . وقد انكمش تأثير اللهجة المصرية بعض الشيء إبان الاحتلال البريطاني وفيما بعد الحرب العالمية الاولى بحكم انفصالها عن بقية بلاد العروبة وبحكم انفصال هذه عن بعضها بحكم الاحتلال او الاستعمار أو الحماية أو ما اشبه من ادوات التفرقة الغربية ، فلما استيقظ الوعى القومى العربي في مصر وعادت الى فهم نفسها واستيقظت الحياة في شتى اقطار العروبة عادت مصر تحتل مكانة مرموقة بين اقطار العرب ونظمت بعثات علمية لها وانتدبت اساتيذ لها ، وهكذا بدأنا نسمع في السنوات الاخيرة بين الاوساط المتعلمة وبين الاوساط شبه المتعلمة اناسا يسرهم ان يحسنوا تقليد اللهجة المصرية حينما يكونون مقيمين بها . . ومن الحق ان نقول : ان التعليم يهذب اللهجات ويقارب

بينها وقد هذب التعليم الواسع في مصر بالنسبة لحالتها السابقة اسلوب اللهجة العامية بعض الشيء وخفف من رعونتها وقربها بعض الخطوات الى حيز أمها : اللغة الفصحى وكذلك الشأن - نسبيا - في هذه البلاد وبذلك ازداد تقارب التفاهم والتآلف ، وبذلك كان تأثير اللهجة التي اهلها اوسع ثقافة واعمق ، اكثر في اللهجة التي اهلها اقل ثقافة ، وشأن اسلوب اللهجة العامية في هذا شأن اسلوب الادب . الا ان هذا يتأثر بقوة بالغة بما هو اقوى منه بحكم ان معتنقيه فئة محصورة محدودة اتخذوا هذا الاسلوب منارا واستاذا لينقذهم من براثن الجمود والخمول التي فتكت بمقومات تفكيرهم من طريق التقليد والتقييد . اما اللهجات العامية فليس امرها كذلك . انها اشبه ببحر واسع يحتمل ان تنطوى مياهه على كل شيء ما صلح وما طلح وما افاد وما لا يفيد ، وما يرقى وينهض وما يحط ويسقط ولكن جوه على كل حال ؛ ولكن محيطه على كل حال ، متأثر بهذا الذي وجد طريقه سهلة ميسورة الى مياهه ، وبقدر تأثره يؤثر في الاجواء التي حوله ، والتي هي اشد التصاقا به في الانتفاع بمن يعيشون فيه وما يوجد فيه .

وقد كونت اللهجة المصرية العامية أدبا عاميا يتمثل اغلبه في الزجل ويتمثل اقله في النثر التهكمي والنقدي الساخر اللاذع ؛ الا ان هذا الادب العامي المتأثر بلهجة الادب الاندلسي ، وبزميله الادب السوري لم يقو على ان يتجاوز محيط مصر ولا على ان يخترق سياج حدودها الى اقطار العروبة الاخرى ، اللهم الا من ناحية الاستحسان والتذوق والفهم اخيرا في بعض الاقاليم العربية المجاورة لمصر ، كالحجاز ، ما عدا تونس ، فانها قد تأثرت في فنونها بهذا اللون من الادب بحكم الاتصال الواسع المدى القديم

والحديث، وقد كان في هذه البلاد ادب شعري عامى يسمونه «الحُمَيْني» بضم الحاء وفتح الميم، وتكوينه واهدافه وأساليبه مقاربة للادب العامي الشعري المصري، ولعله يكون قد تأثر به بعض الشيء الا انه استطاع مع ذلك ان يحتفظ بطابعه الحجازي في طرق التعبير عن خلجات النفوس وفي اساليب الاستيحاء والاستعطاف وابراز العواطف وعرض الرغائب.

وبعد فهذه لمحات خاطفة عن اللهجة العامية في مصر، متأثرة مؤثرة، وفي هذه اللمحات استعراض يصح ان يكون مبدأ دراسة عميقة واسعة لهذا الموضوع الذي له صلة دقيقة بماضي هذه البلاد وحاضرها خاصة، وله صلة دقيقة حافلة بماضي بلاد العرب وحاضرها عامة ؛ واول الغيث قطر ثم ينهمر.

المنهل المجلد (١٢)
(ربيع الثاني ١٣٧١هـ) يناير ١٩٥٢م
ص . ص : ٢٠٤ - ٢٠٧

آثار المدينة المنورة

تأليف

عبد القدوس الأنصاري

مقدمه كتاب أثار المدينة المنورة

إصدار الكتاب ١٩٣٥ م

٨:٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

للطبعـــة الأولى

نحمد الله على توفيقه ، ونصلي ونسلم على صفوة أنبيائه ، وآله وصحبه الكرام . أمّا بعد . فهذه دراسات علميّةٌ أثمرتها أبحـــاثٌ ودراساتٌ ومشاهداتٌ شخصية ، لآثار المدينة المنورة ، أضَعُها بين أيدي القُرّاء كما شاهدتُها وكما حققتُها .

بَدَأتُ في هذه الدراسات منذ ثمانية أعوام ، فطوراً تراني جائلاً في شوارع المدينة وأزقّتِها متأمّلاً ، وطوراً تجدُني سائراً في ضواحيها مستكشفاً ، أعلُو الآكام ، وأستبطِنُ الوهاد ، وأصعد إلى قِمَمِ الجبال ، وأهبطُ إلى قرارات الأوديةِ .

وكانتْ لوافِحُ السَّمُوم لا تكبح من جِماح هِمّتي ، ولواذِعُ القرّ لا تفلّ من حَدّ عزيمتي ، لِمَا أشعرُ به من متعة روحية في مهمّتي . وطالما اشتقتُ إلى أنْ أوفّق لإيداعِ معلوماتي ، ومشاهداتي ، ونتائج

دراساتي ، في سفر يكون جامعاً لأشتاتها ، وبخاصة ان للبحوث الأثرية أهمية خاصة في عالم التاريخ . حتى أراد الله ذلك الآن .

والمدينة حافلة بالآثار ، إن لم تكن كلها آثاراً فهي من أقدم بلاد الله على وجه البسيطة ، فبانوها هم العمالقة ، وقد عرفت العمالقة ، وأنهم كانوا فيما قبل التاريخ . .

وقد تعاقب عليها السكان حتى جمعت أخيراً بين الخزرج والأوس اليمانيين العريقين في التمدن ، الذين عرفوا بمزاولة الزراعة ، وبناء الآطام [1] ، والدور ، وهي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فآثاره بها مشرقة منيرة منتشرة وفيرة .

وهي مهد الإسلام وعاصمته الأولى التي كانت تجبى إليها خزائن الأرض فتصرف وارداتها في أراضيها عمارات وبنايات .

وكانت قبلة الشعوب الإسلامية من شتى الأقطار ، ومصب وابل خيراتهم إذا نزحت بهم الديار !

كل هذا وذاك من طبيعته أن يجعل المدينة بلد آثار بحق ، وما هي الآثار إن لم تكن مخلفات الأولين من عمارات وكتابات وصناعات وما إلى ذلك ؟

وتعميقاً للفائدة وتنويراً لجوانب الموضوع قد حلينا الكتاب بخريطة أثرية تقريبية للمدينة المنورة ، أخذنا تخطيطها من مصادر التاريخ . ولهذه الخريطة التقريبية فوائد جمة ، فهي تدل القارىء على مواقع الآثار وتحددها له ، بصورة واضحة . وفي الكتاب رسوم اكتشفنا بعضها لأول مرة في تاريخ المدينة فأحيينا تسجيل هذا الاكتشاف وتخليده ، بأخذ صورها

---

[1] الآطام جمع أطم وهو الحصن .

لأول مرة في التاريخ أيضاً .

هذا ومهما أكنْ توخيتُ التحقيق ، فلا آمن من زَلْقَة الفكر ، وزَلّة القَدَم ، لأنّ هذا الموضوع الذي طَرَقْتُهُ يكاد يكون بِكْراً في المؤلفات العربية الإسلامية من حيثُ التدوينُ الخاصّ بآثار هذه البلدة الطيبة الكريمة باللغة العربية .

وإنّي لأرجو ممن يَطّلعُ على هفوة أنْ يرشدني إليها مشكوراً ، لإصْلاحِهَا في الطَّبَعَاتِ القادمة إذا وفق الله .

وأملي وطيدٌ في أن أكون قد قمتُ ببعض الواجب في سبيل إحياء كثيرٍ مما انطمّس من آثار هذه البلدة الطاهرة حتى أصْبَحَ مَجْهول الاسم ، أو مَجْهُولَ الحقيقة ، أو غير مَعْرُوفها معاً . والله وليّ التوفيق .

المدينة المنورة

عبد القدوس الأنصاري

خاتمة

إنّ المتأمل في مسيرة العالم الأديب والمفكر الفذّ عبدالقدوس الأنصاري، يستشفُّ بوضوح تلك الرؤية الثاقبة التي عالج بها القضايا الجوهرية في الأدب والثقافة والآثار، سواءً في منطقة الحجاز أو في أرجاء المملكة العربية السعودية قاطبة.

تأتي مؤلفات الأنصاري، التي
تربو على العشرين مصنفاً،
كعلامات معرفية نالت حظاً
وافراً من الإعجاب
والاستحسان؛ فهي لا تزال في
دائرة الضوء ومحل اهتمام
الباحثين والمهتمين بالشأن
الثقافي، قديمهم وحديثهم،
مستفيدين مما تركه من إرثٍ
فكريٍّ رصين عبر مختلف

الوسائل والوسائط يمكن
الرجوع إليها و الاستفادة منها.

والمنهل وما كتبه الأنصاري :
توأمان في رحلة التنوير
وكما كانت مجلة "المنهل" ـــ
التي انطلقت الأولى عام
١٩٣٧م واستمر عطاؤها
المتدفق لأربعة وثمانين
عاماً ـــ مرجعاً أصيلاً ومنارةً
شكّلت ملامح الأدب والثقافة

السعودية في مراحل تطورها
الأولى، كانت كتبه في الأدب
والقصة والآثار والتاريخ على
ذات القدر من الأهمية والريادة.
لقد سار القلمُ في تأليف الكتب
جنباً إلى جنب مع رسالة
المجلة، ليصنعا معاً مشهداً
حضارياً متكاملاً.

واستكمالا لتلك المسيرة في
الادب والعلم والثقافة تأتي

مكتبة عبدالقدوس الانصاري العامة في قلب مدينة جدة، لتكون الحاضنة الوفية لكل إبداعاته، والملاذ الآمن والمنهل العذب لكل ظامئٍ للمجالات الأدبية والثقافية في بلادنا الحبيبة. إنها ليست مجرد مكتبة، بل هي امتدادٌ لروح الأنصاري التي لم تتوقف عن العطاء.